

للأربعين بعون العقديّة

الحديث التاسع والعشرون

المعاني الراسيات شرح حديث

(إني مهلك كلانا)

وكتبه / أيمن إسماعيل

*** بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ***

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ " (آل عمران/ ١٠٢)

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا " (النساء/ ١)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِغِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا " (الأحزاب ٧٠/٧١)

أما بعد
فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم،
وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

* نص الحديث :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
" يَا غُلَامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ :

أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَبْفَعُوكَ، لَمْ يَبْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضْرُوكَ، لَمْ يَضْرُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " * تخريج الحديث :

أخرجه أحمد (٢٦٦٩) ، والترمذي (٢٥١٦) في كتاب صفة القيامة، باب " ٥٩ " ، والحاكم (٦٣٠٣)، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال ابن رجب: " وبكل حال فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة " .^١

^١ (جامع العلوم والحكم ص/١٧٤). وقال الحاكم : هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أن الشيخين - رضي الله عنهما - لم يخرجا شهاب بن خراش، ولا القداح في الصحيحين، وقد روي الحديث بأسانيد عن ابن عباس غير هذا " ١ هـ .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وهذا الحديث معروف مشهور . (قاعدة جلييلة ص/٥٥) ، وصححه عبدالحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى (٣/ ٣٣٣) والألباني في ظلال الجنة (١/ ١٣٨).

* مترلة هذا الحديث :

ولعظم هذا الحديث فقد أفرده الأئمة بالشرح والتصنيف ، كما هو فعل الحافظ ابن رجب ، فقد أفرده بالكلام على رواياته ومعانيه برسالة سماها : " نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لابن عباس " ، وكذلك فقد ذكره النووي في " الأربعين حديثاً " .
قال ابن رجب :

وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين، حتى قال ابن الجوزي :
تدبرت هذا الحديث، فأدهشني وكدت أطيش، فوا أسفا من الجهل بهذا الحديث ، وقلة التفهم لمعناه " .^٢

* أهم الفوائد المتعلقة بحديث الباب :

قوله : " صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
" أَحْفَظِ اللهُ بِحَفْظِكَ " :

وهي جملة متضمنة لأمر وإخبار :
* أما الأول : فهو الأمر :

وهو أمرٌ للعبد أن يقوم بحق الله -تعالى - عليه ، وحفظ العبد لأمر الله - تعالى - على نوعين :
أ) حفظ أمر الله القدري :

وذلك بالصبر على الأقدار ، فهذه من علامات صدق الإيمان ، فعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
" عَجِبْتُ مِنْ أَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ، كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ فَصَبَرَ، كَانَ ذَلِكَ لَهُ خَيْرًا " ^٣ ، فجعل الصبر على القدر لا يحصل إلا للمؤمن .

ب) حفظ أمر الله الشرعي :

وذلك بالقيام بحق الشرع ، بامتنال الأوامر واجتناب النواهي .
كما قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤)) (الأنفال / ٧٤) ،
وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَسَنِيَّةٍ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)) (المؤمنون / ٦١)

* والذي يتنبه لدلالات ألفاظ القرآن والسنة يجد أنها قد حثت في أبواب الآخرة على الجد والسعي والمبادرة والمسارعة ، وأما في أمور الدنيا فقد جاء الأمر بالتمهل

^٢ جامع العلوم والحكم (١/٤٦٢)

^٣ أخرجه مسلم (٢٩٩٩)

والإجمال .

قال الله تعالى (فَاسْتَنْبِقُوا الْخَيْرَاتِ) (البقرة: ١٤٨)

وقال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران: ١٣٣)

وفي حديث أبي هريرة-رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا " ٤ .
فالحديث فيه الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها ، والاشتغال عنها بما سيقع من الفتن الشاغلة المتراكمة كتراكم قطع الليل المظلم .
وفي حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما رأى في أصحابه تأخراً عن الحضور للمسجد قال لهم :
" لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله " ٥

*** وأما في أمور الدنيا فقد أمر الله - تعالى - فيها بالتؤدة :**

فقد قال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) ((١٥)) (الملك/١٥)

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
" إن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها ؛ فاتقوا الله وأجملوا في الطلب " ٦ .

وفي حديث أنس بن مالك-رضي الله عنه- قال:

كَانَ أَحْوَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ ، فَشَكَا الْمُحْتَرِفُ أَحَاهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ " ٧ .

*** وأما الثاني : الإخبار :**

وهي البشارة لكل عبد قائم بأمر الله -تعالى- إذعاناً وامتثالاً ، مسارعة و إقداماً ، بشارة بحفظ الله -عزوجل- له في أصليين :

١- الأول :

حفظ الله -تعالى- لعباده من مضلات الفتن في دينهم ، فيحفظ عليه دينهم حتى يتوفاهم على الإسلام .

٢- الثاني :

حفظ الله - تعالى- لعباده من مضايق المحن في دنياهم .

وأما الأصل الأول :

فيدل عليه قوله تعالى (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩)) (النحل/٩٩) ، وقوله تعالى عن يوسف عليه السلام { كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ

٤ أخرجه مسلم (١١٨)

٥ أخرجه مسلم (٤٣٨)

٦ أخرجه الحاكم (٢١٣٥) و البيهقي (١٠١٨٥) ، انظر صحيح الجامع (٢٠٨٥) ، والإجمال: هو الطلب بقصد واعتدال ، مع عدم اشتغال القلب.

٧ أخرجه الترمذي (٢٣٤٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ } [يوسف: ٢٤]
كذلك ما جاء بيانه في حديث الولاية.

وهو ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه - قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله قال:

مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا
افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ
سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي
يَمْشِي بِهَا، وَإِن سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيْدَنَّهُ ^٨.

*وأما الأصل الثاني:

والذي هو النجاة من محن الدنيا ومضايقتها ، ومن كل أذى فله موارد كثيرة ، قال

تعالى (لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (الرعد/ ١١)

قال ابن عباس رضي الله عنهما :

والمعقبات من الله هم الملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله

تعالى: خلوا عنه ^٩.

قال ابن كثير:

للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء

والحادثات ^{١٠}.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه- لما قال له الشيطان:

إِذَا أُوْبِتَ إِلَيَّ فِرَاشِكَ فَأَقْرَأُ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ ، وَلَا يَفْرُبُكَ

شَيْطَانٌ حَتَّىٰ تُصْبِحَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«صَدَقَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَلِكَ شَيْطَانٌ» ^{١١}

قال ابن رجب:

ومن حفظ الله للعبد: أن يحفظه في صحة بدنه وقوته وعقله وماله ، وكان أبو الطيب

الطبري قد جاوز المائة سنة وهو ممتع بعقله وقوته، فوثب

يوماً من سفينة كان فيها إلى الأرض وثبة شديدة، فعوتب على ذلك، فقال:

هذه جوارح حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر. ^{١٢}

وقال تعالى: (قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ) [الأنبياء: ٤٢]

قال ابن كثير:

أي بدل الرحمن، يمتنُّ سبحانه وتعالى بنعمته على عبده وحفظه لهم بالليل والنهار،

وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام ^{١٣}.

* نقول:

^٨ أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، وقد تم شرح هذا الحديث ضمن سلسلة "الأربعون العقدية"، بعنوان "ضوء

الثريا شرح حديث من عادى لي ولياً"

^٩ جامع البيان عن تأويل أي القرآن (٣٧١/١٦)

^{١٠} تفسير القرآن العظيم (٤٣٧/٤)

^{١١} أخرجه البخاري (٣٢٧٥)

^{١٢} روائع التفسير (٥٧٥/١)

^{١٣} تفسير القرآن العظيم (٣٤٤/٥)

فبقدر ما تحقق من حفظك لأوامر الله تعالى ، بقدر ما يتحقق حفظ الله -تعالى - لك ونظير ذلك ما قد ورد في قوله تعالى { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ } [الزمر: ٣٦] ، فإنه بقدر ما تحقق من الامتثال والعبودية ، بقدر ما يتحقق لك من الكفاية والهداية .
قال الطبري :

يقول تعالى ذكره: (فَلَوْلَا أَنَّهُ) يعني يونس (كَانَ مِنْ) الْمُصَلِّينَ اللهُ قبل البلاء الذي ابتلي به من العقوبة بالحبس في بطن الحوت (لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) يقول: لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة، يوم يبعث الله فيه خلقه محبوساً ، ولكنه كان من الذاكرين الله قبل البلاء، فذكره الله في حال البلاء، فأنقذه ونجّاه.^{١٤}
*وهنا إشكال :

كيف الجمع بين قوله صلى الله عليه وسلم : "احْفَظِ اللهُ يَحْفَظُكَ" ، وبين ما يقع لأهل الإيمان من
البلاء والحن ؟

* وجواب ذلك أن يقال :

أن الحفظ نوعان : " حفظ إيمان ، وحفظ أبدان "

فأما حفظ الإيمان :

فهذا هو المراد بمحدث الباب ، فالعبد إذا ما حفظ الله -تعالى - في أمره ونهيهِ فإن الله - تعالى - يحفظ عليه دينه وإيمانه ، ويجعل له بصيرة تنجيه من مضلات الفتن و شبهات البدع ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) (الأنفال/ ٢٩) ، وقال تعالى (فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)) (البقرة/ ٢١٣)
* وأما حفظ الأبدان :

فمثل هذا وإن كان من حيث الأصل العام داخلاً في حكم القسم الأول ، إلا أنه غير ممتنع الوقوع ، فخير الحافظين لأمر الله -عزوجل- وهو النبي -صلى الله عليه وسلم - لم يسلم من مثل ذلك ، ففي يوم أحد قد شُج في وجهه وكُسرت رباعيته ودمي وهُشمت البيضة على رأسه ، ودخلت حلقتان من المغفر الذي يستر به وجهه في وجنته .

وكذلك فقد سُحر صلى الله عليه وسلم على يد رجل يهودى ، فاشتكى فأتاه جبريل -عليه السلام-

^{١٤} جامع البيان في تأويل القرآن (١٠٨/٢١)

وروى عن أنس -رضي الله عنه- أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
"أن يونس النبي صلى الله عليه وسلم حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات، وهو في بطن الحوت، فقال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين. فأقبلت الدعوة تحف بالعرش، قالت الملائكة: يا رب، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذلك؟ قالوا: يا رب، ومن هو؟
قال: عبيد يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل، ودعوة مستجابة؟ قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحة بالعراء."
قال الحافظ ابن كثير : " لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس - ويزيد وإن كان من الصالحين - لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة" اهـ . وانظر تفسير القرآن العظيم (وأنيس الساري (٤٣٦٥/٦).

بالمعوذتين .

ولم يكن لذلك السحر أثر على شأن الوحي والرسالة ، بل كان يَحْتَلُّ إليه أنه قد صنع شيئاً وما صنعه ، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن ، أي أنه أثر على جسده فقط ، أما الوحي والتبليغ فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

* الحاصل هنا :

أن أصل حفظ الله -تعالى- لأنبيائه وأوليائه إنما هو حفظ لما وقر في قلوبهم من الإيمان الراسخ و الاعتقاد السابغ ، وأما ما يتعلق بما قد يصيبهم من بلاء أو أذى في بدن أو نفس أو مال ونحو هذا ... فهذا غير ممتنع الوقوع .

* وتأمل في قوله تعالى (وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢)) (يوسف/٣٢) فقد أكد الفعل الأول الذى هو السجن -وهذا من بلاء الدنيا- بنون التوكيد ، وقد وقع بالفعل ، أما حال ذكره للَصَّغَارِ الذى هو الذل والهوان -وهذا مما لا يحصل لأهل الإيمان - فقد جاء الفعل مصحوباً بالنون الخفيفة { وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ } ، فلم يقل "ليكونن" ، والنون الثقيلة التوكيد بها أشد وأبلغ ؛ لأنَّ زيادة المبتئ تدلُّ على زيادة المعنى غالباً .

قال ابن القيم : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري ، إن رحمت فهي معي لا تفارقي ، إنَّ حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة .^{١٥}

* ولاشك أن البلاء ، وإن واقعاً ولا بد ، فإن حصوله في أمور الدنيا أهون من حصوله في أمر الدين ، لذا فقد كام من دعائه صلى الله عليه وسلم : " وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا " .^{١٦}

وفي مثل هذا المعنى قد قال يوسف عليه السلام (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ)

(يوسف/٣٣)

* نقول :

حتى ما يقدره الله -عز وجل- على أوليائه من المحن والبلاء فإنما يقع لحكم عظيمة ، منها :

١- أن يكون هذا إظهاراً لصدقهم :

فيثبت أهل الإيمان ، ويُفضح أهل النفاق ، قال تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَفَى الْجُمُعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ

^{١٥} الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص/٤٨)

^{١٦} أخرجه الترمذى(٣٥٠٢) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (١٢٦٨)

وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ (آل عمران/١٦٦-١٦٧)

وقال تعالى (الم (١) أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُبْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (العنكبوت/١-٢-٣)

٢- وقد يكون هذا رفعة لدرجاتهم وتكفيراً لسيئاتهم :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :
 « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَدَى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُّهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » ١٧.

*** عَوْدٌ إِلَى حَدِيثِ الْبَابِ : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَحْفَظُ اللَّهَ تَحِيذَهُ مُجَاهَكِ .. "**

والمعنى : أنه بحفظ حدود الله -تعالى- يُرْزَقُ العبد المعية الخاصة ، ومعية الله -عزوجل- الخاصة معناها أنه سبحانه يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويؤيده ويسدده.

فمن راعى حدود الله - عزوجل - وجد الله معه في كل أحواله، حيث توجه، يحوطه، وينصره، ويحفظه ويوفقه ويسدده { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } [النحل: ١٢٨] .

إنها معية الله -تعالى- لأنبيائه وأوليائه ، قال تعالى (ثَانِيًا ائْتَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) (التوبة/٤٠) ، قال تعالى (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ) (١٥) (الشعراء/١٥) ، وقال عزوجل في خبر موسى عليه السلام (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) (الشعراء/٦٢)

*** عَوْدٌ إِلَى حَدِيثِ الْبَابِ : " وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ... "**

وقد أمر الله تعالى بسؤاله، فَقَالَ: { وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ } [النساء: ٣٢]

وفارق بين سؤال الخالق ، وسؤال المخلوق :

فأما سؤال الخالق :

فالأصل فيه الإلحاح ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :

١٧ منفق عليه .

يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ : يَقُولُ دَعْوَتْ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي) ١٨

قال ابن حجر :

وفي هذا الحديث أدب من آداب الدعاء وهو أنه يلزم الطلب ، ولا ييأس من الإجابة ؛ لما في ذلك

من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار . ١٩

قال ابن القيم : " ومن أنفع الأدوية : الإلحاح في الدعاء " ٢٠

* وأما سؤال المخلوق :

فإن الأصل فيه المنع ، ففي حديث عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ -رضى الله عنه - قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ : «أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟» قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا

رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَّامٌ تُبَايِعُكَ ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَاةَ الْحَمْسَ ، وَتُطِيعُوا - وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا

النَّاسَ شَيْئًا ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلِيَاكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطَ أَحَدِهِمْ ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ . ٢١

وَعَنْ ثَوْبَانَ -رضى الله عنه- عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ:

" مَنْ يَتَكَفَّلُ لِي بِوَاحِدَةٍ ، وَاتَّكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ " ، قَالَ ثَوْبَانُ: أَنَا. قَالَ: " لَا تَسْأَلِ النَّاسَ " ، يَعْنِي شَيْئًا

، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ : فَكَانَ ثَوْبَانُ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا شَيْئًا ، وَيَقَعُ سَوْطُهُ وَهُوَ رَاكِبٌ، فَلَا

يَقُولُ لِأَحَدٍ نَاوِلِيهِ ، حَتَّى يَنْزِلَ فَيَتَنَاوَلَهُ . ٢٢

وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ الْعَوَّامِ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ:

لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَأْتِيَ بِجُزْمَةِ الحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعُهَا، فَيَكْفَى اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ

يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ . ٢٣

*** عَوْدٌ إِلَى حَدِيثِ الْبَابِ : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :**
" وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ " :

وهذه عبادة من أعظم العبادات التي يتوجه بها العبد إلى ربه عزوجل ، وقد أمر الله -تعالى- بها عباده ،

قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) } {البقرة/ ١٥٣}

١٨ متفق عليه .

١٩ فتح الباري (١٤١/١١) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع(٦٦٠٣)

٢٠ الجواب الكافي (ص/٢٥) .

٢١ أخرجه مسلم (١٠٤٣) وأحمد(٢٣٩٩٣)

٢٢ أخرجه أحمد (٢٢٣٦٦)

٢٣ متفق عليه .

وقال موسى لقومه: { اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا } [الأعراف: ١٢٨]، وقال الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : { قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ }

قال ابن رجب : وفي استعانة الله - تعالى - وحده فائدتان:

إحداهما: أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات.

والثانية: أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول.^{٢٤}

*** عودٌ إلى حديث الباب :**

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

"وَاعْلَمَ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ "

وهذه معاني عظيمة النفع لقلب العبد ؛ فإن العبد إذا ما امتلأ قلبه يقيناً أن كل ما يصيبه إنما هو مما قدّره الله - تعالى - وقضاه ازداد تعلقاً بربه وتوكلاً عليه .

فصار القلب متوجهاً بكليته شطر خالقه ، على اليقين الجازم أن الأولياء وغيرهم من المخلوقين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ؛ فضلاً عن أن يملكوا غيرهم ، كما أنهم لا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، وأن غيره تعالى غير قادر على العطاء والمنع ، ودفع الضرر وجلب النفع . قال أبو العباس ابن تيمية :

سلك هذا المسلك العظيم استراح من تعلق قلبه بالخلق ونظره إليهم ، وتجرد التوحيد في قلبه ، وتوكل على الله - تعالى - فهو حسبه .^{٢٥}

قال ابن رجب :

إن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضرر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وإفراده بالطاعة والخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعاً، وأن يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعاً، وإفراده بالاستعانة به

^{٢٤} نور الاقتباس في شرح وصية النبي - صلى الله عليه وسلم - لابن عباس(٣/١٣٣)

^{٢٥} مجموع الفتاوى (١/٩٣)

والسؤال له، وإخلاص الدعاء له في حال الشدة وحال الرخاء . ٢٦ .
وقال تعالى (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (يونس/١٠٧)

فإذا ما مسك ضر فلن يستطيع الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم أن يرفعوا هذا الضر عنك ، إلا إذا أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى ، وإذا أصابك خير قَدَرَهُ اللهُ -تعالى- لك فلن يستطيع الخلق كلهم أن يمنعوا هذا الخير ، إلا إذا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى .

ولا شك أن لهذا الاعتقاد متعلقاً وثيقاً بتوحيد الربوبية ؛ فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع، الخافض الرافع، المعز المذل، فمن شهد أن المعطي أو المانع، أو الضار أو النافع، أو المعز أو المذل غيره، فقد أشرك بربوبيته .

وقال سبحانه { قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا } [الإسراء - ٥٦]

فمن دلائل بطلان عبادة من سوى الله - عزوجل - أنهم لا يملكون كشف الضر عن المرء ولا تحويله ، فهذا أحد أوجه الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية .

*

*** عودٌ إلى حديث الباب : قوله صلى الله عليه وسلم :**

" رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَعَتِ الصُّحُفُ " :

والمعنى :

أن الله -تعالى- قد قضى كل شيء وقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ، وأمر بكتابة هذا الذي قَدَرَهُ في اللوح المحفوظ ، ويسمى أيضاً أم الكتاب ، و الكتاب المبين .

قال تعالى { وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَقَرٌّ } (القمر/٥٣) ، وقال الله تعالى : { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي

الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } [الحديد: ٢٢]

وعن عبادة بن الصَّامِتِ -رضى الله عنه- قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ :

" إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكْتُبْ قَالَ : رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ :

٢٦ جامع العلوم والحكم (١ / ٤٨٥) بتصرف يسير .

اَكْتُبَ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ " ٢٧

وقد بَوَّبَ الإمام البخاري -رحمه الله- في كتاب القدر من صحيحه : " بَابُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ ، وذكر تحته ما يلي :

قوله تعالى { وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ } [الجاثية: ٢٣] ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ»

قلت :

وأما ذكر البخاري لهذه الآية تحت هذا التبويب ففيه دلالة أنه رحمه الله يرجح أن هذا العلم المقصود في هذه الآية هو علم الله -تعالى- السابق ، فيكون المعنى أن ضلال هذا العبد إنما وقع وفق ما قدره الله - عزوجل- في علمه الأزلي ، وأنه لا يستحق إلا ذلك .^{٢٨}

*وأما حديث أبي هريرة-رضي الله عنه- الذي ذكره البخاري هاهنا معلقاً فقد وصله في باب النكاح برقم (٥٠٧٦) ، ومناسبتة هناك أن أبا هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّي رَجُلٌ شَابٌّ، وَأَنَا أَحَافٌ عَلَى نَفْسِي الْعَنْتِ، وَلَا أَحِدٌ مَا أَنْتَزَّجَ بِهِ النِّسَاءَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«يَا أَبَا هُرَيْرَةَ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ ، فَاحْتَصِ عَلَى ذَلِكَ أَوْ دَرُ»

* وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه : " جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ " ، هو معنى ما ورد في حديث الباب : " رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " :

فهذه كناية عن الفراغ من الأمر الذي سبق به القدر ، فكل ما يجري في الوجود فقد سبق به علم الله - تعالى - وكتابه ، فقد فُرِغَ من الكتابة التي أمر الله -تعالى- بها القلم حين خلقه ، وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو-رضي الله عنهما- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ:

^{٢٧} أخرجه أحمد (٢٢٧٠٥)، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٤٨/١)

وقد تم شرح هذا الحديث ضمن أحاديث "الأربعون العقدية" ، تحت عنوان " بلوغ العلم في شرح حديث أول ما خلق الله القلم "

^{٢٨} ولهذه الآية توجيهان نص عليهما ابن كثير ، فقال رحمه الله : وقوله: {وأضله الله على علم} يحتمل قولين: أحدهما : وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك. والآخر: وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه. والثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس. اهـ ، وأما الطبري فلم يذكر إلا وجهاً واحداً ، فقال رحمه الله : خذله عن محجة الطريق، وسبيل الرشاد في سابق علمه على علم منه بأنه لا يهتدي، ولو جاءت كل آية. اهـ وانظر تفسير القرآن العظيم (٢٦٨/٧) وجامع البيان في تأويل القرآن (٧٦/٢٢)

"كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمِائَةِ أَلْفِ سَنَةٍ، وَعَرَّضَهُ عَلَى الْمَاءِ" ٢٩ .
وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

(كتب الله مقادير الخلائق) : قال العلماء المراد تحديد وقت الكتابة في اللوح المحفوظ أو غيره ، وليس أصل التقدير ؛ فإن ذلك أزلي لا أول له .
قال أبو الحسن الأشعري :

وأجمعوا على أنه تعالى قد قدر جميع أفعال الخلق وآجالهم وأرزاقهم قبل خلقه لهم، وأثبت في اللوح المحفوظ جميع ما هو كائن منهم إلى يوم يبعثون . ٣٠

*** وهذا الذي كتب في اللوح المحفوظ يشمل على كلمات الله الشرعية والكونية :**

(أ) أما الكلمات الشرعية :

فمنها التوراة بيمينه لموسى في الألواح، وأنزل على إبراهيم صحفاً وعلى موسى صحفاً، وكذلك القرآن فإنه مكتوب عنده في اللوح المحفوظ، كما قال سبحانه وتعالى في وصف القرآن: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج: ٢١-٢٢] ، وقال تعالى (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ) {الواقعة: ٧٧-٧٨} .

(ب) وأما الكلمات الكونية :

وهي ما كل قدره الله -تعالى- من أقدار وأعمال وأخبار ، كما قال تعالى وقال تعالى: {ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب} (الحج: ٧٠) ، وقال تعالى {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ} [يس: ١٢]

قال مجاهد : أي أن جميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين هاهنا هو أم الكتاب . ٣١
قال ابن قدامة :

لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد لأحد عن القدر المقدور، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور. ٣٢

٢٩ أخرجه مسلم (٢٦٥٣)

٣٠ رسالة إلى أهل الثغر(ص/٢٤٧)

٣١ تفسير القرآن العظيم (٦/٥٦٨)

٣٢ لمعة الاعتقاد (ص/٢٣)

* وهنا سؤال :

قد دل حديث الباب على أن مقادير الخلائق قد فرغ منها ، فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف ، لكن قد يشكل على هذا ما قد ورد في أدلة أخرى يعارض ظاهرها هذا الأمر ، مثل قوله تعالى: { يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ } [الرعد/ ٣٩] ، وكذلك ما ورد في حديث ابن عباس - رضى الله عنهما - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : إِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَمَّا خَلَقَ آدَمَ، مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ مِنْ ذَرَارِيِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَجَعَلَ يِعْرِضُ دُرَيْتَهُ عَلَيْهِ، فَرَأَى فِيهِمْ رَجُلًا يَزْهَرُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، كَمْ عُمُرُهُ؟ قَالَ: سِتُّونَ عَامًا، قَالَ: رَبِّ زِدْ فِي عُمُرِهِ.....^{٣٣} ، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ» .^{٣٤}

* وجواب ذلك أن يقال :

أن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة قد قدره الله - تعالى - وكتبه في اللوح المحفوظ ، وهذا الذى سطر في اللوح المحفوظ لا يبدل، ولا يغير، ولا يمحي، وإنما الذي يقبل التغيير والحو والإثبات، هو ما في صحف الملائكة، كما قال عزوجل (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) {الرعد: ٣٩} .
والمعنى :

أن الذى فى أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ لا محو فيه ولا تغيير ، وهو من الغيب المطلق الذى لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وأما الذى يسطر فى صحف الملائكة فهذا الذى قال تعالى عنه (يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ) ، وكل ما يقع فى هذه الصحف من التغيير والإثبات فهو مكتوب فى اللوح المحفوظ تفصيله، ونهايته .

* فالحاصل أن القضاء نوعان :

- ١ - قضاء المبرم :
فهذا الذى لا يتبدل فيه ولا تغيير ، وهو المسطر فى اللوح المحفوظ ، وهو أم الكتاب أى أصله .
- ٢ - قضاء المعلق : وهو المراد فى قوله تعالى { يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ } ، فالحو فيه والإثبات يتعلق

^{٣٣} أخرجه أحمد (٢٢٧٠) والترمذى (٣٣٦٨) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي . وانظر صحيح الجامع (٥٢٠٨)
^{٣٤} منفق عليه .

بأسباب قدرها الله عزوجل ، ومنها الدعاء وصله الرحم .

ومثال الأول :

ما ورد عن أم حبيبة -رضي الله عنها - أنها قالت :

اللَّهُمَّ مَعْنِي بِرُوحِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّكَ سَأَلْتِ اللَّهَ لِأَجَالِ مَضْرُوبَةٍ، وَأَثَارِ مَوْطِئَةٍ، وَأَرْزَاقِ مَفْسُومَةٍ . ٣٥

*ومثال الثاني :

ما ورد من قول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - وهو يطوف بالكعبة:

اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبت علي الدنْب والشتقوة فامحني وأثبتني في أهل السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب . ٣٦

وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

كتابان : كتابٌ يمحو منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب . ٣٧

*وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية :

عن قوله تعالى { يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب } ، هل المحو والإثبات في اللوح المحفوظ ، وقد جاء: { جف القلم } فما معنى ذلك في المحو والإثبات؟ وهل الصحيح عندكم أن العمر يزيد بصله الرحم كما جاء في الحديث؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب رضي الله عنه :

الجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلاً في صحف الملائكة ، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب ، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب. وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال:

" اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً ؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت . والله سبحانه عالم بما

كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك ،

والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله، فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة وأما

٣٥ أخرجه مسلم (٢٦٦٣)

٣٦ أخرجه الطبري في "تفسيره" (٥٦٤/١٣) ، وحسن ابن كثير إسناده في "مسند الفاروق" (٥٤٩/٢)

٣٧ جامع البيان في تأويل القرآن (٤٨٠/١٦)

علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالماً به ، فلا محو فيه ولا إثبات .^{٣٨}
والأجل أجلان " أجل مطلق " يعلمه الله " وأجل مقيد " وبهذا يتبين معنى قوله صلى الله عليه وسلم
{ من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه } فإن الله أمر الملك أن يكتب له أجلاً
وقال: " إن وصل رحمه زدته كذا وكذا " والملك لا يعلم أيزداد أم لا؛ لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر
، فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر .^{٣٩}

* أصل القضاء لا يعارض العمل :

عَنْ جَابِرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: جَاءَ سُرَّاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ، فِيمَا الْعَمَلُ الْيَوْمَ؟ أَيْمًا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ
الْمَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا نَسْتَقِيلُ؟

قَالَ: «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ» قَالَ: فِيمَا الْعَمَلُ؟ فَقَالَ:
«اعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ» ، ثُمَّ قَرَأَ: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى } [الليل: ٦] ،
إِلَى قَوْلِهِ { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى } [الليل: ١٠] .^{٤٠}

فقد قدر الله -تعالى- ترتيب المسببات على الأسباب، ما يجيء لك ولد إلا إذا تزوجت، ولا يعقل أن
تقول " إن كتب الله لي ولدا فسيأتي ولو لم أتزوج " ! ، أو تترك طلب الرزق وتقول:

" إن كتب الله لي رزقاً سيأتي وأنا نائم " ! نعم قد يكون؛ لكن ليس هذا موجب العقل والفترة والشرع
. بل

موجب العقل والفترة والشرع أن تسعى في طلب الرزق، ولو توكلت على الله-تعالى- فلا بد لك من
الأخذ بالأسباب، وأعظم من ذلك أمر السعادة، فلا تكون السعادة إلا بأسبابها وهي الإيمان والعمل
الصالح، ولا يمكن أن يكون الإنسان سعيداً إلا بالأسباب، فمن تحققت له أسباب السعادة فنعلم بذلك
أنه قد سبق علم -تعالى- الله وكتابه بسعادته.

*ولكن مع تقدير الله -تعالى- الأزلئ لمنازل أهل السعادة وأهل الشقاء فقد أمر -تعالى- بتحصيل
العمل الصالح الذي به تحصل سعادة الدارين ، قال تعالى { فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا

^{٣٨} مجموع الفتاوى (٤٩٢/١٤)

^{٣٩} المصدر السابق(٥١٧/٥) ومن أراد الاستزادة في تفصيل هذه المسألة فليراجع :
مشكل الآثار (٨١/٨) والتوضيح لشرح الجامع الصحيح(٤/١٠١) والمفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم
(٥٢٨/٦)

^{٤٠} منفق عليه .

صَالِحًا { [الكهف: ١١٠] ، وقال تعالى (وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ
سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩))

فجعل-تعالى- من علامات صدق الدعوى بذل العمل ، وإلا فالمدَّعون أكثر ، لكن لم يزل أهل الصدق
إلى قلة .

تم بحمد الله .